الرسول الرحمة

بين آيات القرآن وفتاوى أهل التكفير والعدوان

إعداد لجنة الثقافة
بالمجلس الزيدي الإسلامي

أصل هذه المادة ورقة عمل قدمت في ندوة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي ١٤٣٥هـ..

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ-٢٠١٦م

المجلس الزيدي الإسلامي

الإسلامي المجلس

الجمهورية اليمنية

البريد الإلكتروني: zmagls5@gmail.com

الموقع الإلكتروني: www.zaidiah.com

قناة التلجرام: https://telegram.me/zmagls

العالم غداة مولد الرحمة

ولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عالَمٍ جاهليٍّ أوغل في المادية، وتجرّد عن الروح والفطرة، وابتعد عن القيم التي تتصل بهما، كان يعيش حياة القسوة والغفلة، كان أهله قساة إلى الحد الذي دفنوا فيه أولادهم أحياء، وكانوا ماديين إلى الغاية التي فيها أزهقوا الأرواح البريئة، وركبتهم السخافة إلى المدى الذي كانت تثور فيه حرب طويلة الأمد، كبيرة الخسائر في الأرواح والممتلكات لسببٍ يثير الضحك سخافة، لقد تكثّفت المادية في تعاملاتهم بصورة قاسية، فتبلّدت عقولهم عن الإيمان بالله، فعبدوا آلهة مادية محسوسة وهي الأوثان من دون الله، وظهروا على أخلاقٍ شريرة مع الاحتفاظ ببقيةٍ من مكارم الأخلاق تميزوا بها أو بعضهم عن من سواهم.

لقد صوّرهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه على بلاط النجاشي ملك الحبشة يوم فرَّ المسلمون الأوائل بدينهم إليه فقال: ((**أيها الملك كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف**)).

إنه الجهل بكل علمٍ يقرّب إلى الله، الجهل بالرحمة، والجهل بالمعاد، والجهل بالخير، الجهل الذي يبدو أن (الجاهلية) اشتُقّت منه هو الذي كان وراءَ تلك الفوضى التي مرّتْ على عالَم ذلك الزمان، لقد كان الجهل هو السببَ الرئيسَ وراء ضلالهم، فحضرت الماديةُ في حياتهم؛ لهذا اتخذوا إلهاً ماديا، وحضرت الحمية في واقعهم، فأحيوا رابطة الدم، وأعلوا راية العصبية، وابتعدوا عن هدي الله وأعلامه، فافتروا أحكاما وأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، وأكل القويُّ منهم الضعيف، وشنوا الحروب على بعضهم بغية المال.

لم يكن هذا الأمر مقصوراً على العرب، بل كان العالم جميعُه يتيه في ضلالٍ كبير، كانت مصر ترزح تحت حكم الرومان، الذين حوَّلوها إلى مزرعة خاصة لجباية الأموال، وأبحر أهلُها في خضمٍّ صراعٍ ديني مسيحي مسيحي حول طبيعة السيد المسيح، وأخذ ذلك شكلَ مناظراتٍ عنيفة، ورزحت تحت استغلالٍ اقتصادي بشع للمواطنين الزراع، وكانت المسيحية بتحريف(بولس) لها عن مبادئها الأولى فأخرجها عن روحانيتها، وأدخل عليها تأثيراً وثنياً انحرف بمسيرتها، وظلَّت (أوروبا) تتسكَّع في ظلام الجهل والحروب، وباتت حضاراتها (اليونانية والرومانية) أشبهَ بجثة متعفنة.

واتصف اليهود كعادتهم بالخنوع عند الضعف والبطش عند القوة، واشتهروا بسوء السيرة عند الغلبة، والقسوة العارمة، وأكْلِ أموال الناس بالباطل، ولما غزا الفرسُ الشامَ كان اليهود أشدَّ الناس إلباً وقتلاً لجيرانهم النصارى، ولما دالت دولة الروم المسيحية نكّل هرقل النصراني باليهود، وأوقع بهم شنعاءَ النقمة.

وفي إيران سادت المجوسية وظهرت حركات هدّامة للبشرية، مثل حركة (المانوية) و(المزدكية)، وقُدّس الحكام الأكاسرة، وكان المجتمع الإيراني مجتمعاً قائماً على الطبقية المبنية على النسب والحرفة، وكانت شعوب وسط آسيا لا تزال تعيش مرحلة الانتقال من البداوة إلى التحضر، ولم يكن لديهم شيء ذو بال يذكر.

وعجّت الهند بكثرة المعبودات، وغرِقت في الفوضى الجنسية الجامحة، وحلّ التظالم الشديد بسبب التفاوت الطبقي؛ فقد كانت طبقة (شودر) مثلا وتقع في أسفل الهرم الطبقي منبوذةً بنص القانون المدني الهندي حينذاك، وكانوا بحكم القانون أيضا أحطَّ من البهائم، وأذلَّ من الكلاب، وكان الصينيون يسمون ملكهم (ابن السماء) تقديسا وتعظيما.

وقدّس الرومان الشعب والوطن الرومانيين على حساب غيرهم من الشعوب الأخرى، فانتهبوها حقوقها، واستحلّوا كل شنيعة بحقهم، ولم تكن هناك أمة صالحة المزاج معتدلة الآراء، ولم يكن على وجه الأرض مجتمعٌ قائم على أساس الأخلاق والرحمة والفضيلة والعلم.

ويبدو واضحا غياب فضيلة الرحمة عن هذا العالم، فتوحّش أبناؤه، وافتقدوا الأيدي الحانية، والقلوب الرحيمة، وعندئذ أظلمت الأرض، وتضايقت الآفاق، ولأن الله رحيم بعباده لم يترُك عبادَه يعيشون حياة القسوة المادية العارمة، إنه عز وجل المتصف بصفة الرحمة.

الرحمة في القرآن

في هذا الجو المتلبد بالظلمات، بعث الله الرسول محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، الذي وصفه بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، أرسله الله سبحانه وتعالى الذي وصف نفسه بـ(الرحمن) و(الرحيم)، والرحمة رِقَّةٌ تقتضي الإحسان إلى المرحوم، ولأنها عرَضٌ لا

يُتَصوّر حلولُه في الله عز وجل، فقد استُعْمِلت مجازا مشهورا في الإحسان المجرّد الذي تفضّل الله به على عبيده في الأرض، في مظاهر متعددة تظهر فيها رحموتيته عز وجل.

يبين القرآن الكريم في آيات كثيرة أبعادَ رحمة الله وتجلياتها، ومظاهرها، ومن خلال تتبع موارد هذه الرحمة في القرآن والمعاني الخاصة التي جاءت فيها نجد أنها جاءت بمعنى النجاة من الغرق، والأمن من الاختلاف، والانتصار على النفس الأمارة بالسوء، والوقاية من السيئات، وصرف العذاب، ودخول الجنة، وتصريف النعم، والنبوة، وبلوغ الإنسان أشده، واستخراج الكنز، وهبة الله الأولاد، والمحبة القلبية الناشئة بين الزوجين، والغيث، والنجاة من الأعداء، وخلْق الليل للسكنى، والنهار لابتغاء الفضل، ورفع البلاء، وغير ذلك، مما يشير في مجموعه إلى احترام النفس البشرية وحفظِها وصيانتِها وتشريع الشرائع التي تحفظ كرامتها وعصمتها.

إن (الرحمة) مصطلحٌ واسعٌ لمجالات الإحسان الواسعة لكل شيء، من الله المتفضِّل على عبيدِه، يقول تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ومن

أسمائه الحسنى عز وجل: (الرحمن) و(الرحيم)، وقد تجلّت رحمانيته في أعظم مظاهرها حين أرسل عز وجل عبده ونبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين، رحمة للبشرية التي كانت قد غرقت في أهوائها، وتاهت في شهواتها.

الرحمة وواقع التكفير

قبل أن نقف بالتحليل والتفسير مع الآية الكريم ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ ، لا بد من عرض صورة للتكفير المناقِض لرسالة الرحمة، ولنتائجه السلبية على الأمة؛ فالمرء يشاهد اليوم هذه الحركات التكفيرية التي ابتلي بكثرتها أهلُ هذا الزمان، والتي تدّعي الانتساب إلى سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وتدّعي أنها تسلك منهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكلما كان تشدُّد أحدهم أكثر ضد غيره من المسلمين، كلما وصفوه بأنه "صلْبٌ في السنة"، و"مخشوشنٌ" فيها، لا بدع أن نقول: إن هناك انتسابا تضليليا يُكاد به الإسلامُ تحت عنوان السنة المحمدية، وجعلها مرادفة للعنف، والقتل، والاغتيال، وهذا غير صحيح البتة؛ لأن هناك مذاهب كثيرة تنتمي لهذا المصطلح لكنها لا تمت بصلة إلى العنف ولا إلى التكفير.

إذن فالحديث هنا عن جماعاتٍ وأنظمةٍ ترتبط بدول الاستكبار العالمي، وبالصهيونية العالمية، والحضارة المادية الغربية وتحاول إظهار الإسلام وكأنه دين العنف والقتل والجبروت، وتظهره وكأنه دين القسوة والشدة والذبح، والتنكيل، وتِصِرُّ على تصوير سلوكها وممارساتها وكأنها الدين الحق، كل ذلك باسم الإسلام، وتحت عناوين السنة النبوية، ورسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والخطورة أيضا تكمن في الادعاء الحصري لتمثيل هذا الدين من قبل هؤلاء الذين جنوا على الإسلام أكثر مما جنى عليه أعداؤه.

ومهما رأينا من أثر كبير للاستكبار العالمي في صناعة هذه الحركات، وتوظيفها في مهمات خبيثة وقاسية وعنيفة، إلا أن الحق يقال، وهو أن هذه القساوة والشدة ليست وليدة اليوم، وليست من بنات أفكار تكفيريي اليوم، بل يتكئون فيها هم ومن شارك في صناعتهم ووجودهم على ركامٍ هائل من التراث الفكري العنيف الغليظ الذي أنتج تجارب سيئة في تاريخ المسلمين، وخلف ضحايا كثرا في فترات مختلفة، وتستغله دوائر الاستعمار والاستكبار كبوابات دخول إلى عقلية التكفيري لتسييره في الطريق التي يريدون، وتفجيرِه

حيث يشتهون، بيدَ أنه يجب التنبيه بأن الخطورة تكمن في كون هذه الجماعات التكفيرية المعاصرة تريد إحياء قضايا تاريخية لم يعد أهلها موجودين، أو لم تعد ظروف حكاياتها ونشوئها موجودة، وهم يريدون إحياءها، وإحياء مدلولها في واقعنا اليوم؛ فهم مثلا يكفرون مَنْ يسمونهم الجهمية وفي نفس الوقت يريدون تلبيس هذه التهمة بإحدى الفرق الإسلامية المعاصرة، هذه هي الخطورة.

ولو أنهم مثلا كفَّروا طائفة ما أو مذهبا ما، وفي نفس الوقت يقولون: إن هذه الطائفة لم تعد موجودة لكان الأمرُ هيِّنا، لكنهم يستدلون على تكفير معظم الفرق الإسلامية الموجودة بفتاوى وأقوالٍ يروونها هم عن بعضِ سلفِهم وشيوخهم بشأن قضية من القضايا، وفيها يحشرون فتاوى تكفيرية تحرِّض على العنف والقتل وتناقِضُ الرحمة التي أُرْسِلَ بها نبينا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ضد المخالفين، قضايا تتعلق بالعقيدة أو بالموقف السياسي، بحسب طبيعة الدور الموكل إليهم من قبل صنَّاعهم الغربيين والأنظمة العميلة لهم في المنطقة، والخطورة كما سبق أنهم يريدون أن يوجِدوا لهذه الفتاوى واقعا ومدلولا في عصرنا اليوم، ولا يزالون يصدِّرون فتاواهم

التكفيرية المنافية لمنهج الرسول الرحمة ضد أغلب فئات المسلمين، وكلها تناقض تمام المناقضة منهج الرسول الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم.

دور الوهابية

منذ ظهور الوهابية التكفيرية في أرض نجد، والتي تحدث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنها ((**يطلع منها قرن الشيطان وبها الفساد والزلازل والفتن**))، منذ ذلك الحين شاهَدَ العالمُ - ولا يزال - المآسيَ الكثيرة، والوحشيات الخطيرة، وجرائم الذبح والنحر والتفجيرات الانتحارية والاعتداء بغير تمييز بين محارِب وغير محارِب، وبلا تمييزٍ بين صغير أو كبير، وامرأة أو رجل، ومقاتل أو رجل دين، وللأسف فإن القنوات الإعلامية الكبرى في العالم تكون في العادة هي السباقة لنشر هذه الفظائع في المجتمعات الغربية والتي يرتكبها التكفيريون باسم الإسلام وباسم النبي الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بغرض تصوير الإسلام والمسلمين على هذا النحو، وعلى أنه الطابع العام لهذه الأمة.

وما حدث ويحدث داخل هذه الحركات التكفيرية، وفيما بين تياراتها التي تجمعها الهوية الوهابية، من حروبٍ متبادلة، وقتل لبعضهم بعضا، مثل ما حدث بين القاعدة وداعش، و(جبهة النصرة وداعش)، و(داعش ولواء شيخ الإسلام ابن تيمية)، و(داعش والجيش الحر)، وكذلك ما حدث ويحدث بين التيارات التكفيرية في جنوب اليمن (القاعدة وداعش والإخوان وبعض السلفيين)، والتي وضعت نفسها في خدمة المحتل الأجنبي، كل ذلك يجيب على من يقول: إن هناك رحمة فيهم، لكنهم يصرِّفونها بينهم؛ لأن الحقيقة أنه لا يوجد رحمة مطلقا في قواميس تدينهم، ولا في أخلاقهم، ولا في ممارساتهم، ولا في مصفوفة قيمهم، لا لهم، ولا لغيرهم من العالمين، إنهم خِلو عنها، وبراء منها، ولعله يصح القول: إن المرء حين يقبل بأطروحات الفكر التكفيري فإنه بالضرورة يكون قد تخلَّى عن المعاني والقيم الجميلة في الإسلام وفي الإنسانية.

والأخطر هو ما أسميه (تسويق التكفير) وجعلُه ثقافة شعبية على القنوات والمنابر، وفي الإعلام المرئي والمسموع والمقروء؛ لأنه يؤدي إلى وضع لغم مجتمعي مؤقت وخطير بيد أطفال العقول، وقساة القلوب لا بد أن يعبثوا به بشكل مريع مهما طال أمده.

العدوان على اليمن والتكفير

بتاريخ ١٤٣٦/٦/٦هـ قال مفتي النظام السعودي الأعمى عبدالعزيز آل الشيخ، في لقاء تلفزيوني مع إحدى القنوات موجود على اليوتيوب: "هؤلاء الأعداء (يقصد اليمنيين) يحاولون بكل جهودهم إضلال الأمة عقائديا وأخلاقا وقيما وسلوكا، يريدون طمس الإسلام وأن يبدلوا عقائد الناس، يريدون أن يبدلوا دين العرب ولغة العرب، يريدون أن يحلوا الفرس محل أمة الإسلام". وأشاد بالعدوان على اليمن قائلا: "وما قامت به الدولة (العدوان على اليمن) هو عمل مبارك وخيّر، ونحن نبارك هذه التصرفات التي أجراها والطريقة التي سار عليها، نبارك له ونهنئه ونقول: يدنا معك جميعا وكل المسلمين معك".

أما الداعية الإخواني، وأحد أبواق مملكة قرن الشيطان، سلمان العودة، فقد غرّد في حسابه على التويتر مشيدا بعاصفة الجرم والإبادة الجماعية، واعتبرها موقفا شجاعا. واعتبر إمام الحرم المكي عبدالرحمن السديس عاصفة الحقد الشيطاني حربا سيسجلها التاريخ بمداد الذهب. وأنشأ الداعية الدكتور عايض القرني قصيدة شيطانية

بعنوان: (لبيك يا سلمان)، دعا للحرب على يمن الإيمان، متهما أبناء اليمن بأنهم (عصبة الشيطان) و (عباد الوثن)، وعلل فيها عاصفة الكرامة بأنها من (أجل الرسالة والسنن)، وطالب بإحراق اليمنيين الذين وصفهم بـ(أذناب المجوس)، كما طالب بقصف ما سماها سراديب العمالة، وأمّل أن يُشْفَى غليلُه بقصف وقتل اليمنيين.

وفي ذات السياق أفتت هيئة علماء الزنداني الوهابية التكفيرية أيضا بتأييد عاصفة الحقد التدميرية، وأصدرت هذه الفتوى بعد أن ارتكب العدوان مجازرَ كثيرة ضد المدنيين الآمنين، في المدن السكنية، والأسواق، والأعراس، والمشافي والمساجد. وبعد عام ونصف من العدوان وبعد كل تلك الجرائم والمجازر والتدمير والقصف بالأسلحة المحرمة، وبعد تلك الأعداد المهولة من الشهداء اليمنيين أطفالا ونساء ورجالا ظهر الخطيب والبرلماني الإخواني عبدالله صعتر ليفجّر عاصفة من السخرية ضده حين وصف العدوان على اليمن، بأنه هبة الله من السماء التي أهداها لأهل اليمن، ويحمد الله عليها.

جميع هؤلاء المفتين والوعاظ يستندون في تأييدهم للعدوان إلى تكفير اليمنيين، وأنهم مجوس، أو روافض، أو ما شابه ذلك، وهو

تكفير سياسي وعسكري يراد به التغطية على جرائم العدوان، والتجييش بالفتوى كأحد أسلحة التحالف ضد هذا الشعب، لكنه يشير أيضا إلى الرغبة في تسويق هذا العدوان على خلفية تكفيرهم لليمنيين، الذي طالما صدحت حناجرهم، وطفحت كتبهم به، والسؤال: أين هؤلاء من الرحمة التي أُرْسِل بها الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالمين جميعا؟ ألم تسع هذه الرحمة أولئك الآلاف من الضحايا أطفالا ونساء؟ ألم تشمل الملايين من المحاصرين في غذائهم ودوائهم؟ هل قتل عشرات الآلاف من الأطفال والنساء والرجال، وتشريد مئات الآلاف، وحصار الملايين من الغذاء والدواء، ومنهم المرضى، والجرحى، والأطفال، بذريعة تافهة، وهي إعادة ما يسمى بالشرعية، مظهر من مظاهر رحمة الله التي أرسل الله بها رسوله إلى العالمين؟

ضلال كبير

أما لماذا خطئ هؤلاء المفتون طريق هذه الرحمة المحمدية؛ فلأنهم يعتمدون في دينهم على أساس منهار، ويدورون بفتاواهم المتقلبة

والمزاجية مع تقلبات ومزاجيات السلطات والأنظمة أينما دارت، السلطات التي كانت عبر تاريخ طويل نموذجا سيئا للعملاء المرتهَنين للأمريكان والصهاينة، فمِن أين سيُطِلُّ الهدى على مفتين ووعاظ هذا شأنهم، ومن أين سيتنزل الإيمان على قلوبٍ خلت منه لاكتظاظها بقسوة الظلمات، وحب الدنيا وحظوظ النفس والبحث عن المكانة.

لقد كان العدوان على اليمن فاضحا لهؤلاء المفتين والوعاظ، وكاشفا لحقيقة تدينهم، ومستوى أخلاقهم، ومقدار إنسانيتهم، كما كشف ارتباطَهم المتين بالحركات التكفيرية، والتراث التكفيري من جهة، وبيّن عظيمَ سعيهم في مرضاة النظام العالمي المستكبر أمريكا والصهاينة ومن معهم.

لا بد أن نعترف أن سببَ تجاوزِ هذا العدوانِ على اليمن الخطوطَ الحمراء التي يراعيها عادةً حتى الصهاينة، مرجعُه إلى أمرين، الأمر الأول: هو علاقة هذا العدوان بالمؤامرات الدولية التي يراد بها إغراق المنطقة بالنزاعات، وإبقاؤها رهن الإحَن والعداوات، لتسهل السيطرة عليها، وعلى ثرواتها، وهنا نتذكر ما قاله المؤرِّخ الأمريكي

ريتشارد إيميرمان: "القوَّة والأمن الأمريكيان يعتمدان بشكل أساسي على الحصول على المواد الأولية من العالم، وبالتدخل في أسواقه الداخلية، وبالأخص في دول العالم الثالث التي يجب أن تبقيها الولايات المتحدة تحت السيطرة الشديدة"، والأمر الثاني: هو علاقة العملاء المنفِّذين لهذا العدوان بالتراث التكفيري، الذي يستبيح العرض والأرض والنفس، والذي سجّل تاريخا طويلا من الازدواجية في التشدد ضد المسلمين، والتسامح والانسجام مع الكفار، وأثبت أن لا علاقة له لا من قريب ولا من بعيد بالرحمة التي أرْسِل بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالمين، ومن دون شك فإن الغربيين يوظِّفون هذا التراث لتحقيق أهدافهم الاستعمارية والاستغلالية.

التكفير التاريخي الذي يتكرر اليوم

ليس اليمنيون اليوم فقط من اصطلى بلظى فتاوى التكفيريين المدّعين الانتساب إلى الرسول الرحمة، فقد أضاع التكفيرُ مفهوم الرحمة من تاريخ المسلمين بشكل فظيع، بحيث يحمل الناس على التساؤل:

أين هي الرحمة في هؤلاء الذين ورثوا من أنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، لا يمكن أن يجد المرء شيئا اسمه الرحمة في طريقة تعامل هؤلاء وأسلافهم، وأمامي عشرات النقول الموثَّقة من القديم والحديث بفتاوى تكفيرية وتحرِّض على القتل والعنف ضد العزّل من الناس الذين لا سلاح لهم إلا ما يحملونه من أفكار، ومن الطريف أن هذه الجماعات التكفيرية التي تحرِّض على العنف والقتل ضد المجتمع والفرد الذين ليس بيدهم ما يدافعون به عن أنفسهم، بينما هي في العادة تصنع علاقة تناغمية منسِجمة مع الحاكم ولو كان ظالما فاجرا متسلطا، ولو كان عميلا للكفار المعتدين، ومظاهرا مؤيدا للأعداء الباغين، بل وكثيرا ما استعان هؤلاء المفتون بهذا الحاكم العميل لضرب خصومهم الذين خالفوهم في فتوى من الفتاوى الفقهية البسيطة ممن لا حول لهم ولا قوة.

سأكتفي ببعض النماذج، نموذج من القرون الثلاثة الأولى، ونموذج من القرون الوسطى، ونموذج من العصر الحاضر، على أن هذه النماذج للأسف تنتمي إلى خط فكري واحد، هذا الخط هو الذي

يتبنى الفتنة في البلدان الإسلامية، ويحيي هذا الفكر التكفيري على أرض الواقع، وما وصل بلدا من بلدان الإسلام إلا وأورثها الشرور، ونفخ فيها الفتنة والحروب.

التكفير في القرون الثلاثة الأولى

هناك نموذج صارخ في التكفير وهو تكفير الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت١٥٠هـ)، وهو فقيه الإسلام الذي أقر بفضله وعلمه جميع الأمة. الإمام الذي لا يزال التكفيريون اليوم أو طائفة كبيرة منهم يروّجون لتكفيره ويطبعون الكتب التي تروجه.

سأنقل من مصدر واحد فقط، وهو كتاب السنة للمحدِّث عبدالله ابن الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٩٠هـ)، وفيه غنية عما سواه، وبالمناسبة فالكتاب اليوم من مصادر العقيدة المعتمدة لهذه الحركات التكفيرية، وقد طبعه أحد علماء السعودية عام ١٣٤٩هـ على نفقة الملك عبدالعزيز آل سعود احتفاء بما فيه من التكفير والتضليل والتشجيع على القتل والتدمير، وهو السبب الذي حدا مؤخرا بأحد طلاب الدكتوراه في جامعة سعودية لتحقيقه كأطروحة دكتوراه.

وهذا ملخَّصٌ لما ورد فيه من تكفيرٍ للإمام أبي حنيفة:

رووا فيه عن أحمدَ بنِ حنبلٍ أنه قال: "يؤجَرُ الرجل على بغض أبي حنيفة وأصحابه. وعن أبي يوسف: أنه مات جهميا، وأنه كان يعمل بأقوال جهم تأتيه من خراسان. وقالوا فيه: إنه كان يرى أن القرآن مخلوق، وأنه أول من قال به. وأنه كافر!!. زنديق!!. ينقض عرى الإسلام عروة عروة. وما وُلِدَ في الإسلام أشأمُ ولا أضر على الأمة منه. وأنه أبو الخطايا. وأنه يكيد الدين. وأنه نبطي غير عربي. وأن الخمَّارين خيرٌ من أتباعه. وأن الحنفية أشدُّ على المسلمين من اللصوص. وأنه سيكبُّه الله في النار. وأنه أبو جيفة. وأنه لا يسكن البلد الذي يُذْكَرُ فيه أبو حنيفة. وأن استقضاءَ الحنفية على بلدٍ أشدُّ على الأمة من ظهور الدجال. وأنه ضيّع الأصول. ولو كان خطؤه موزَّعا على الأمة لوسعهم خطأً. وأنه يجب اعتزاله كالأجرب المُعْدي بجربه. وأنه ترَكَ الدينَ. وأن بعض فتاواه تشبه فتاوى اليهود. وأنه وأصحابه شرّ الطوائف جميعا.. وأنه لم يُؤْتَ الرفقَ في دينه. وأن الله ضرب على قبره طاقا من النار. وأنه ما أصاب قط. وأن أصحابه استتابوه من الكفر مرتين أو ثلاثا. وأن بعض العلماء حمد الله على وفاته. وأنه استُتيب من كلام الزنادقة مرارا. وأنه كان يرى جواز

شرب المسكر وأكل لحم الخنزير وأنه كان فاسدا. وأن بعض العلماء يرون جواز لعنه. وأنه كان أجرأ الناس على دين الله. وأنه مارق. وأن حماد بن سلمة كان يقول: إني لأرجو أن يدخله الله نار جهنم".

ويروون عن ابن المبارك أنه قال: "احتملنا له كذا وكذا كثيرا من العيوب فلما قال بالخروج على الظالم لم نحتمِلْها له".

ويبدو أن وراء هذه القائمة الطويلة من الاتهامات العنيفة والتكفيرية نفَسا سياسيا، ومطلبا تشويهيا لبعض الحكام الذين ضاقوا ذرعا بمواقفه رضي الله عنه، ولهذا وظَّفوا تكفير هؤلاء وكرْهَهم لأبي حنيفة وسمحوا له بالظهور؛ حيث أشارت كثير من الروايات في كتاب السنة نفسه أنهم احتملوا له كل مخالفة، ولكن لمّا قال بالخروج على الظالم لم يحتملوها له، ورووا عن كبارهم أنهم نقموا عليه أنه فضّل أحدهم - إذ خرج مجاهدا مع الإمام إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (استشهد ١٤٥هـ) في البصرة - على أخيه الذي بقي يطلب الحديث(١).

(١) كتاب السنة لعبدالله بن أحمد بن حنبل، ت. محمد القحطاني، ط١، الدمام، دار ابن القيم، ج١ ص١٨٠ - ٢٢٠.

وإذا كانت هذه جرأتهم على الإمام أبي حنيفة وهو مَنْ هو عِلما وفضلا وكثرة أتباع في الإسلام فما الحال بعامة المسلمين وضعفائهم؟!! ولكم أن تتصوروا حجم الكارثة التكفيرية التي أذيعت باسم السنة النبوية، وتوارثتها الأجيال على أنها دين الإسلام ومنهج الرحمة، لو عاد الإمام أبو حنيفة إلى واقعنا اليوم، هل سيستطيع أن يدخل إلى السعودية الوهابية لأداء الحج أو العمرة مثلا، وهم يتحدثون عنه بهذه اللغة التكفيرية في مناهجهم؟! أليس من المحتمل جدا أن يتبرّع أحدُ طلاب هذه المدرسة السلفية الغالية والتكفيرية بقتله تقربا إلى الله تعالى على حدِّ زعمهم كما فعلوا بالشيخ الدكتور محمد رمضان البوطي أو بشيخنا الدكتور شهيد المنبر المرتضى المحطوري وصحبه الشهداء الأكرمين؟!

إذا كان هذا وضعُ الإمامِ أبي حنيفة فكيف بغيره من الناس؟! هل يمكن أن يمثّل هذا الفكر - الذي يتبناه اليوم كثْرٌ ورأيناه في واقع هذا العدوان على اليمن - مظهراً من مظاهر رحمة الله على العالمين، التي ابتعث الله النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بها ومن

أجلها؟! هل سترضى رحمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتفوهوا بهذا في عالمٍ ملأت فضائله الآفاق؟!.

ونقل الشيخ ابن تيمية – وهو الأب الروحي للتكفير السلفي العالمي – تكفيرا كثيرا وقساوة عارمة وغلظة على المسلمين شديدة في كتابه الصارم المسلول، فروى عن:

– الإمام المحدث أحمد بن يونس (معاصر للإمام ابن حنبل) أنه قال: (لو أن يهودياً ذبح شاة، وذبح رافضي لأكلت ذبيحة اليهودي، ولم آكل ذبيحة الرافضي؛ لأنه مرتد عن الإسلام). وهم يلقبون المحبين لأهل البيت بالروافض.

– قال فضيل بن مرزوق: سمعت الحسن بن الحسن يقول لرجل من الرافضة: و الله إن قتلك لقربة إلى الله وما أمتنع من ذلك إلا بالجواز، فتلطّف معه هذا المسمى بالرافضي، وقال له: رحمك الله قذَفْتَ إنما تقول هذا تمزح!! فيقول له هذا التكفيري: "لا و الله ما هو بالمزاح ولكنه الجد، لئن أمكننا الله منكم لنقطعن أيديكم وأرجلكم"[١].

(١) الصارم المسلول للشيخ ابن تيمية، ط١، بيروت، دار ابن حزم، ١٤١٧هـ، ج١، ص٥٧٠.

أتساءل فقط هل يوجد هذا في الكتاب أو في السنة الصحيحة المجمع عليها أن عقوبة من يسمونه بالرافضي هي قطع الأيدي والأرجل؟! هل هذا يمثّل الرحمة التي جاء بها ومن أجلها الرسول الرحمة؟!! أليست شعارات داعش (جئناكم بالذبح)، وممارساتها الإجرامية في القتل وفنونه الغريبة والعجيبة إلا ترجمة عملية لهذا العنف في هذه الفتاوى والأفكار؟!

لا يكفّرون فقط بل ويحضون على العنف والقتل

ليتهم اقتصروا في عنفهم على إطلاق الكفر، ولكنهم أتبعوا ذلك بالتحريض على القتل والعنف، وهذه أمثلة لذلك:

- قال الإمام المحدِّث عبد الرحمن بن مهدي البصري (ت١٩٨هـ): "من زعم أن الله عز و جل لم يكلِّم موسى صلوات الله عليه يستتاب فإن تاب وإلا ضُرِبَتْ عنقُه". وبشأن مَن يسمونهم الجهمية، فقال: "يستتابون فإن تابوا وإلا ضُرِبت أعناقهم"[1]. وهم بهذا يقصدون من يتأوّلُ تكليمه له بأنه خلق الصوت في

---

(١) السنة لعبدالله بن أحمد، ج١ ص، ١٢١، ٢٨٠.

الشجرة، وأنه وُصِف بالتكليم مجازا لتنزُّهِه عن شبَهِ المخلوقات وعن اللهوات والفم والآلات، وهم من يسمونهم بالجهمية. وقد ورد تعريف الجهمية عند التكفيريين اليوم بأنهم نفاة الصفات، الذين يقولون: القرآن مخلوق (أي محدث)، وأن الله لا يُرى في الآخرة، وأن محمَّداً لم يُعْرَجْ به إلى الله، وأن الله لا علم له زائدا على ذاته، ولا قدرة، ولا حياة كذلك، كما يقوله المعتزلة، والمتفلسفة(١). ويدخل تحت هذه التهمة الملفّقة الزيدية والإمامية والمعتزلة والإباضية.

- قال وكيع بن الجراح الرؤاسي الكوفي (ت١٩٧هـ): "أستتيب الجهمي فإن تاب وإلا قتلتُه"(٢). وهذا يشير إلى أنهم لا ينتظرون الوالي أو الحاكم بل ينفِّذون القتلَ هم بأيديهم. وقال أيضا: "من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أنه محدَث يستتاب!! فان تاب وإلا ضربت رقبته!!"(٣). وهنا يتبين أنهم سوف لن ينتظروا الحكم

---

(١) فتاوى الإسلام سؤال وجواب، ج ١ ص١٨٣٦، المكتبة الشاملة، سؤال رقم ٢٠٨٨٥- الصلاة خلف أصحاب البدع الكفرية وغير الكفرية، المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

(٢) السنة لعبدالله بن أحمد، ج١، ص١١٤- ١١٥.

(٣) السنة لعبدالله بن أحمد، ج١، ص١١٥.

بعقوبة المخالِف من الحاكم الشرعي، بل هم مَنْ يبادرون إلى تنفيذ العقوبة التي ترشدهم إليها البغضاء والإحنة المذهبية.

- عن سفيان بن عيينة (ت١٩٨هـ)، قال: "من قال: القرآن مخلوق كان محتاجا أن يُصْلَب على ذباب" يعني جبل. وقال سفيان أيضا: "يقول من زعم أن قول الله عزوجل: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩ ﴾ [النمل: ٩] مخلوق فهو كافر زنديق حلال الدم"[١].

- وسئل معتمر بن سليمان (ت١٨٧هـ)، عن إمامٍ لقومٍ يقول: القرآن مخلوق، هل أصلي خلفه؟ فقال: "ينبغي أن تضرب عنقه"[٢].

-كفروا المعتزلي بشر المريسي (ت٢١٨هـ) من أئمة المعتزلة، وأفتوا بقتله، وحرّضوا هارون الرشيد العباسي عليه، قال شبابة بن سوار: اجتمع رأيي ورأي أبي النضر هاشم بن قاسم وجماعة من الفقهاء على أن المريسي كافر جاحد، نرى أن يستتاب فإن تاب وإلا ضُرِبت عنقه، وهذا ما حمل الرشيد لأن يتوعّده بالقتل،

---

(١) السنة لعبدالله بن أحمد، ج١، ص١٠٧، ١١٢.

(٢) السنة لعبدالله بن أحمد، ج١، ص١١٨.

فقال: بلغني أن بشرا المريسي يزعم أن القرآن مخلوقٌ لله، عليَّ إن أظفرني به الله إلا قتلتُه قتلة ما قتلتُها أحدا قط[1]. وهذا يشير إلى استخدامهم السلطات الزمنية وتحريضهم للملوك ضد خصومهم الفكريين بشكلٍ فجٍّ، وعلى التفنن في قتلهم، بقتلات لم تعرف من قبل؛ الأمر الذي يفسر تفننهم في قتل خصومهم اليوم، ويفسر المدى الوحشي والفظيع الذي بلغه العدوان على اليمن.

التكفير في القرون الوسطى

أحيى الشيخ ابن تيمية في القرن الثامن الهجري تيارَ التجسيم والتكفير داخل المذهب الحنبلي، وكتب كتبا كثيرة، وله إنتاج غزير، وتميز بالجرأة في طرح آرائه، وقد ضمّن مؤلفاته تكفيرا، وتضليلا لطوائف ومذاهب الأمة، وقد تقدم ما نقله في كتابه (الصارم المسلول). وله مواقف حادة ومتطرفة وتكفيرية ضد الصوفية والشيعة والمنطقيين والكيميائيين والفلاسفة.

ورث حِدَّته وتكفيره تلامذتُه ومنهم ابن القيم الجوزية، وابن

---

(١) السنة لعبدالله بن أحمد، ج١، ص١٢٤، ١٢٧.

كثير الدمشقي، الذي حكم بأن إراقةَ دمِ مَنْ يرى تقديمَ عليٍّ في الخلافة "مثل إراقة المدام"، أي الخمر، يقول: "ولو كان الأمر كما زعموا لما ردّ ذلك أحدٌ من الصحابة فإنهم كانوا أطوعَ لله ولرسوله في حياته وبعد وفاته من أن يفتئتوا عليه فيقدِّموا غير من قدّمه، ويؤخِّروا من قدَّمه بنصه، حاشا وكلا، ومن ظن بالصحابة رضوان الله عليهم ذلك فقد نسبهم بأجمعهم الى الفجور والتواطؤ على معاندة الرسول صلى الله عليه و سلم، ومضادّتهم في حكمه ونصه، ومن وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلع رِبقة الإسلام، وكفَر بإجماع الأئمة الأعلام، وكان إراقةُ دمِه أحلَّ من إراقة المدام[1]".

في عصور الانحطاط جُعِل (سب الصحابة) مشنقة للخصوم الذين يراد لهم الموت بدون رحمة، وشارك بعضُ هؤلاء العلماء التكفيريين في قتل الناس بطريقة وحشية، فهناك مثلا الحِلِّي المسمى علي بن أبي الفضل، والذي يُدْعَى ابن كثير أيضا، والذي تحيّنه القدَر إلى دمشق المملوكية في سنة٧٥٦هـ/ ١٣٥٤م؛ ليجد ابن كثير الدمشقي هذا تلميذ ابن تيمية، والمحدِّث والمؤرخ والمفسر، فحرّض

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير الدمشقي، بيروت، دار المعارف، ج٥ ص٢٥٢.

عليه عامةَ الناس بحجة أنه يسب الصحابة، فأخذه العامة إلى القاضي؛ وجاء ابن كثير الخصمُ المحرِّض والمفتي بالقتل والتكفيري والإعلامي المؤرِّخ الذين ينقل الحادثة، والذي لا يرضيه إلا سفك الدم، فيذكر - متباهيا بإنجازه العظيم!! المتمثل في قتل ابن كثير هذا - أنه هو الذي لحقه إلى مجلس القضاة ليناقشه في ما حدث بين الصحابة، وبالطبع فقد أسرع القاضي المالكي بالحكم بإراقة دمه وأسرف في ذلك كما كانت عادة القضاة المالكية للأسف الشديد، بينما توقَّف القضاة الثلاثة الشافعي والحنفي والحنبلي في الأمر، وهنا أُخِذَ ابن كثير (الضحية) - كما يخبِرنا خصمه المحرض والمفتي والإعلامي الحصري ابن كثير - بسرعةٍ فائقة لتضرَبَ عنقُه تحت القلعة، ثم يروي ابن كثير المفتي والمحرِّض بكل أريحية أن العامة أخذوا جثته وحرّقوها، وطافوا برأسه في الأسواق وهم يقولون: هذا جزاءُ من سب أصحاب رسول الله[1].

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ج١٤ ص٢٨٧.

التكفير في العصر الحاضر

حمل الوهابيون في هذا العصر لواء التكفير، ولا تجد بلدا من البلدان إلا وأهله يعانون من غلوائهم في القسوة والغلظة، وإثارة الفتن والنعرات، وشدة العداء والكره والبغض للمجتمعات، ومن بوَّابة التكفير وعبْرَ الفساطيط ذاتِ الأبواب المتداخلة يتحرّك التكفيريون متنقِّلين بين التكفير والتفجير، بخلفية عقَدِية تدعوهم إلى كُرْه المجتمعات وبغضِها والعزمِ على الشرِّ بها.

هذه نماذج فتاوى تذكِّر بتلك النفوس المولَعة بالدماء، والتي ليس فيها من رحمة الإسلام ونبيه الكريم شيء.

- هذا الشيخ ابن باز مفتي المملكة يعتبر أن الشيعة مشركون شركا أكبر، حيث يقول في إحدى فتاواه: "وأفيدكم بأن الشيعة فرق كثيرة، وكل فرقة لديها أنواع من البدع، وأخطرها فرقة الرافضة الخمينية الاثني عشرية؛ لكثرة الدعاة إليها، ولما فيها من الشرك الأكبر كالاستغاثة بأهل البيت، واعتقاد أنهم يعلمون الغيب، ..."[1].

(١) صدرت الإجابة من مكتبه في ٢٢ / ١ / ١٤٠٩ هـ برقم ١٣٦ / ١.

- ابن جبرين، سئل: ما حكم دفع زكاة أموال أهل السنة لفقراء الرافضة (الشيعة) وهل تبرأ ذمة المسلم الموكل بتفريق الزكاة إذا دفعها للرافضي الفقير أم لا؟

فأجاب: لقد ذكر العلماء في مؤلفاتهم في باب أهل الزكاة أنها لا تدفع لكافر، ولا لمبتدع، فالرافضة بلا شك كفار لأربعة أدلة، ....[1].

(١) هذه الأدلة هي الأول: طعنهم في القرآن، وادعاؤهم أنه قد حذف منه أكثر من ثلثيه، كما في كتابهم الذي ألفه النوري وسماه فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب، وكما في كتاب الكافي، وغيره من كتبهم، ومن طعن في القرآن فهو، كافر مكذب لقوله تعالى ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

الثاني: طعنهم في السنة وأحاديث الصحيحين، فلا يعملون بها، لأنها من رواية الصحابة الذين هم كفار في اعتقادهم، حيث يعتقدون أن الصحابة كفروا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم إلا علي وذريته، وسلمان وعمار، ونفر قليل، أما الخلفاء الثلاثة، وجماهير الصحابة الذين بايعوهم فقد ارتدوا، فهم كفار، فلا يقبلون أحاديثهم، كما في كتاب الكافي وغيره من كتبهم.

الثالث: تكفيرهم لأهل السنة، فهم لا يصلون معكم، ومن صلى خلف السني أعاد صلاته، بل يعتقدون نجاسة الواحد منا، فمتى صافحناهم غسلوا أيديهم بعدنا، ومن كفّر المسلمين فهو أولى بالكفر، فنحن نكفرهم كما كفرونا وأولى.

الرابع: شركهم الصريح بالغلو في علي وذريته، ودعاؤهم مع الله، وذلك صريح في كتبهم، وهكذا غلوهم ووصفهم له بصفات لا تليق إلا برب العالمين، وقد سمعنا ذلك في أشرطتهم. ثم إنهم لا يشتركون في جمعيات أهل السنة، ولا يتصدقون على فقراء أهل السنة، ولو فعلوا فمع البغض الدفين، يفعلون ذلك من باب التقية، فعلى هذا من دفع إليهم الزكاة فليخرج بدلها، حيث أعطاها من يستعين

- وبمجرد أن تحضر هذه الندوة عن المولد النبوي فإن ذلك يعطيك عندهم فسقا محقَّقا، يقول ابنُ جبرين موضحا البدعة المكفِّرة والمفسِّقة: "هناك بدعة مفسِّقة كبدعة الموالد، وصلاة الرغائب،، وإحياء ليلة الإسراء، وبدعة الرافضة يوم عاشوراء، وعيد الغدير للرافضة. أما المكفِّرة فبدعة الرافضة بسب الصحابة، والطعن في القرآن، وبدعة الجهمية بالتعطيل ونحو ذلك"(١).

- ما مر من تكفيرهم وتضليلهم لليمنيين، كأحد أسباب إعلانهم العدوان على اليمن، وفي الفترة الأخيرة لما أشاعوا حادثة الإفك التي تزعم أن اليمنيين استهدفوا مكة المكرمة بصاروخ باليستي، فإن مفتي آل سعود أيضا جدّد تكفيرَه لليمنيين تحت هذا المبرر السخيف والكاذب.

بها على الكفر، وحرب السنة، ومن وكل في تفريق الزكاة حرم عليه أن يعطى منها رافضيا، فإن فعل لم تبرأ ذمته، وعليه أن يغرم بدلها، حيث لم يؤد الأمانة إلى أهلها، ومن شك في ذلك فليقرأ كتب الرد عليهم، ككتاب القفاري في تفنيد مذهبهم، وكتاب الخطوط العريضة للخطيب وكتب إحسان إلاهي ظهير وغيرها، والله الموفق. رقم فتوى ابن جبرين ١١٤٧ في فتاوى الإسلام، المكتبة الشاملة، وهي موجودة أيضا في كتاب (فتاوى ابن جبرين)، المكتبة الشاملة.

(١) فتاوى الشيخ ابن جبرين، ج١٨ ص٢٧، المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

غياب الرحمة .. سبب الشقاء

بعد هذا يتبين أن ما يشهده عالم الإسلام اليوم من قتالٍ وتناحرٍ وبغضاء بين الإخوة والمناطق، وعدوان يتحالف فيه المستكبرون وعملاؤهم على شعب كريم وأبي، وحصاره من الغذاء والدواء، ما هو إلا نتيجة ارتماء هذه الأنظمة في أحضان المستكبرين وتنفيذهم لخططهم الجهنمية، وما هو إلا نتيجة التغطية على ذلك بفتاوى الفكر التكفيري الذي يروِّج له شيوخ الفتنة ووعاظ السلاطين العملاء، وما نسمعه ونراه من شن الحروب!! ضد المسلمين، وما يمتلئ به اليمن اليوم من مآسٍ ومجازر وضحايا وتدمير واستهانة بالنفس البشرية ومقدرات الأمة، كل ذلك ما هو إلا نتيجة غياب مبدإ الرحمة، رحمة الإسلام، رحمة الرسالة النبوية المحمدية.

إنها الرحمة حين لا تسكن قلبا بشريا فإنه يتحول بعدها إلى وكر شيطان في قلب ذئب مسعور.

تلك بعض مظاهر القسوة والشدة المناقضة للرحمة في ذلك التيار التكفيري داخل الأمة الذي يلعب دورا سيئا وخطيرا بادعاء حرصه على الإسلام، وخدمة أنظمة الاستكبار العالمية والتحالف معها، كما

أن هناك نماذج أخرى، قد تكون في هذا التيار أو ذلك، ولكنها في غالب الأحوال نادرة وقليلة الوقوع، بينما نجدها حاضرة بقوة في ذلك الفكر التكفيري الذي يملك المال والسلاح والرجال، وتطايرت شروره في كل مكان. والسؤال الأهم أين هو الرسول الرحمة من هذا الواقع الذي يريد هؤلاء وصْلَه به وحاشاه صلى الله عليه وآله وسلم.

الجاهلية الأخرى

إن ذلك العدوان من نجد قرن الشيطان، على يمن الحكمة والإيمان، هو في الحقيقة مظهر من مظاهر الجاهلية الأخرى، التي تنعدم فيها الرحمة.

في خطابه بمناسبة المولد النبوي الشريف ١٤٣٧هـ علَّل السيد عبدالملك الحوثي الاحتفاء بالمولد النبوي بكونه: "أملاً لخلاص البشرية كُلّ البشرية من كُلّ ما تعانيه؛ نتيجة هيمنة وطُغيان قوى الاستكبار والطاغوت التي ملأت العالم كله بشرها وفسادها وإجْـرَامها وطغيانها وسوئها وقُبحها"، وأضاف مبيِّنا أين تكمن

مأساة هذه الأمة اليوم فقال: "مأساةُ الأُمَّــة أن يأتي إليها شرُّ خلق الله، أسوأ عباد الله، قوى طاغية متجبرة ظلومة متوحشة لا أَخْلَاق لها ولا قيم، ولا تُعطي أيَّ اعتبار ولا مكانة للبشرية ولا لحقوق البشرية، فتستعبدها قهراً وتستعبدها إذلالاً وهواناً وظلماً"، مستخلصا أن البشرية تعيش ببعدها عن تعاليم الإسلام واقعَ الجاهلية الأخرى التي تحدَّث عنها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، إذ يقول: "واليوم كُلٌّ يشكو مما يعانيه من الظلم من أَبْنَـاء الأُمَّــة، وعلى يدِ مَنْ هم محسوبون على أنهم من الأُمَّــة، ثم نأتي إِلَى زكاء النفوس نجد ظاهرة التوحش اليوم في واقعنا الذي هو فعلاً جاهلية أُخْــرَى تحدَّث عنها الرَّسُــوْلُ فيما سبق حينما قال: ((**بُعثت بين جاهليتين أُخراهما شرٌّ من أولاهما**))؛ لِأَن هذه الجاهلية فيما يمتلكُه قادتها، وفيما يمتلكه رجالها، وفيما تمتلكه جيوشُها وفيما يمتلكه أربابها وأصحابها هي أسوأ وأكثر خطورةً وضراً وشراً على البشرية مما كانت الجاهلية الأولى، الجاهلية الأولى لم يكن الجاهليون فيها يمتلكون من الإمْكَانات العسكرية والإعْــلَامية وغيرها مثل ما هو قائم في واقعنا اليوم، اليوم المسألة بشكل كبير جدٌّ خطيرة، ووصل سوؤها إِلَى حدٍّ فظيع، ومعاناة

البشرية من ويلاتها وكوارثها ومآسيها على نحوٍ لا يخفى على أحد".

ويضيف: "في جاهلية اليوم نرى التوحش الذي كان في جاهلية الأمس قبل مبعث نبي الإسْـلَام مُحَمَّـد صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِـهِ، نرى اليوم الأطفال والنساء، والإنْـسَـان رجلاً أَوْ امرأةً، كبيراً أَوْ صغيراً، شاباً أَوْ شيخاً لا قيمة لحياته، يقتل الآلاف بكل بساطة، إذَا كان العربي في الماضي يقتل بمُديته أَوْ بسيفه أو بخنجره، فجاهلية اليوم تمتلك أعتى وأفتك أَنْوَاع الأسلحة التي تتمكن من خلالها من تنفيذ الإبادة الجماعية والقتل الجماعي للآلاف من الأطفال والنساء، وللإنْـسَـان القُدرة على أن يخمِّنَ أَوْ يقدرَ الأرقام من قتلى البشرية من ويلات جاهلية اليوم بالملايين، أطفالاً ورجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، نتيجة إمْكَانات جاهلية اليوم".

ويضرب مثلا لجاهليي هذا العصر وكيف يشكِّلون خطرا أعظم على الإنسانية من جاهليي الجاهلية الأولى، فيقول: "جاهليُّ اليوم أَمريكي أَوْ إسرائيلي، سعودي أَوْ إمَارَاتي أَوْ غيره، جاهلي اليوم بوحشيته بتجرُّده من الإنْـسَـانية يستخدم الطائرات، يستخدمُ القنابل المحرمة والأسلحة المحرمة دولياً، يستخدم أفتك أَنْوَاع

الأسلحة؛ ليقتل الآلاف والآلاف من الأطفال والنساء بطريقة وحشية بشعة، لا تستطيع إلَّا أن تقولَ: إن الذي يفعل ذلك متجرد من كُلّ الشعور الإنْسَاني، يعيش تمَاماً الحالة الغريزية التي يعيشها أيُّ وحش، أي حيوان متوحش، لا فرقَ بينه وبينه، بل هم أضل بل حتى من الحيوانات، قد ترحم تلك الحيوانات ما لا ترحمه تلك الوحوشُ البشرية".

بحث بياني في قوله تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}

بعد أن عرضنا لواقع العالم اليوم وكيف ابتعد عن الرحمة فإنه يحسُنُ في هذه المناسبة الكريمة أن نذكّر أنفسنا بوقفة بيانية مع الآية الكريمة التي تحصر رسالة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في الرحمة، وهو المعنى الذي أكَّده الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حين قال: ((**إنما أنا رحمة مهداة**)).

إن هذه الآيةَ الكريمة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ بصيغتها الحصرية التي يخاطب فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وردت بذات الصيغة في مواضعَ قليلة في القرآن، حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ: ٢٨]، ويقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الفرقان ٥٦، والإسراء ١٠٥] وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ، ولا يبعد أن هذه الصيغة التي جعلت من مرسَلية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم محصورة على كونه رحمة للعالمين، وفي هذه الآية علاقة بالآيتين السابقتين أيضا من حيث دلالتها على عالمية الإسلام وكونِه رحمةً لكل العالمين، وفيها إشارة إلى وظيفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الرحموتية من كونه مبشِّرا بالرحمة ونذيرا لها، لدى هؤلاء العالمين، وفي البشارة والإنذار تكمُن الرحمة التي أرادها الله عز وجل، وتقديم البشارة على الإنذار في الآيات دليلٌ آخر على كون الرسالة رحمة للعالمين.

هذه الآية ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ فاقت أجمع بيتٍ قالته العرب، وهو "قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل"، قالوا: إن الشاعر وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل،

فجمع فيه ستة معان لا غير، لكن الآية الكريمة اشتملت على أربعة وعشرين حرفا بدون حرف العطف، وقد ذكر فيها الرسول والمرسِل والمرسَل إليهم والرسالة وأوصاف كلٍّ مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسَل إليهم، وخصوصية الحصر، وتنكير (رحمة) للتعظيم، وليس للإفراد لظهور أن المراد جنس الرحمة، وليس نوعا منها، وتنكير الجنس هو الذي يعرِض له قصْدُ إرادة التعظيم؛ فهذه اثنا عشر معنى.

وانتصاب (رحمة) في الآية إما على المفعولية لأجله، ويكون القصْر فيها هو قصْر الرسول المسنَد إليه الرسالة على سببية الرحمة لجميع العالمين، ونفي أي سبب آخر، وهو معنى عظيم يشير إلى أن الرحمة للعالمين هي الباعث على إرسال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأكرِمْ برسالة ما جاءت إلا تلبية لداعي الرحمة للعالمين، وإما على الحالية من ضمير المخاطب في (أرسلناك)، وحينئذ يكون من قصر المخاطب مسندا إليه الرسالة على صفة الرحموتية، وهو من قصر الموصوف على الصفة كالأول، وفيه إيماءٌ لطيف حيث يفيد أن الرسولَ اتَّحد بالرحمة وانحصر فيها، ومن المعلوم أن (الرسولية)

ملازمة له في سائر أحواله، فصار وجوده رحمة، وصارت سائر أكوانه رحمة. ووقع الحال (رحمة) مصدرا، وهو جائز عند محققي النحويين؛ إذ أنه جاء مبينا لهيئة صاحبه، وتكلُّفُ بعضِهم بتأويلِه يُفْسِد المبالغة المستفادة من بلاغة استخدامه مصدرا، وهو (أي الوقوع) يفيد كون (الرحمة) صفة متمكِّنة من إرساله، وكأنه (أي الرسول) صار إياها (أي الرحمة)، فكأن إرساله هو الرحمة ذاتها، ويدل على هذا المعنى قول صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنما أنا رحمة مهداة**»، فكأنه صار صلى الله عليه وآله وسلم عندئذ رحمة متمحضة خالصة للعالمين.

من هم (العالمين)؟!!

جاء التعريف في (للعالمين) لاستغراق كلِّ ما يصدُق عليه اسمُ العالَم، والعالَم: الصنف من أصناف ذوي العلم، كالجن والإنس، أو هو النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة، فإن أريد بها المعنى الأول فمعنى كون الرسالة المحمدية منحصرة في الرحمة: أنها أوسع الشرائع رحمة بالناس وأعمها، وتتعلق بجميع أحوال المكلّفين، وأن رسالته أقيمت على دعائمِ الرحمة والرفق واليسر، قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ**

عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾[الحج: ٧٨]﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((**بُعِثْتُ بالحنيفية السمحة**)).

وإن أريد بـ(العالمين) المعنى الأشمل الذي يشمل المعنى الأول المذكور سابقا، والثانيَ وهو أنواع المخلوقات ذات الحياة؛ فإن الشريعة الإسلامية أَمَرَتْ بالرحمة بسائر الحيوانات ووضَّحت العلاقة بين الحيوان والإنسان؛ إذ هو مخلوق لأجل الإنسان، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ ﴾ [النحل: ٥]، وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس في الانتفاع بما ينتَفع به من الحيوانات مع تحريم العقل للإضرار بها، ولهذا حرُم استخدامُ الحيوان أو الانتفاعُ به لا على الوجه المشروع، وبناءً على عقيدة العدل يذكر أصحابنا في أصول الدين أن عدل الله يقتضي أنه لا بد من تعويضها في الآخرة عما يصيبها من الأضرار في الدنيا بسبب الإذن الشرعي الناقل لحكم العقل في إيلامها والانتفاع بها.

ويترجح أن كلمة (للعالمين) تشمل المعنيين معا، فرسالته صلى الله عليه وآله وسلم رحمةٌ للعقلاء وغيرهم من الحيوانات، وقد أدّب الإسلام أبناءه على التعامل الحسَن معها، وزجر من يخالفها، وتبني الإسلامِ الرفقَ بالحيوانات باعتباره واجبا شرعيا يدل على أنه رحمة عامة، وهنا أستأنس بشرح القرآن الكريم لماهية العالمين، حينما تعنّت فرعون قائلا لموسى عليه السلام: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٣ – ٢٨]، فالآيات تبين أن العالمين هي السماوات والأرض وما بينهما، والحاضرون وآباؤهم الأولون، والمشرق والمغرب وما بينهما، وخرج ما عدا الحيوان عن مقتضى الرحمة؛ لأن العقل لا يجد علاقة سائغة للرحمة بما عداها، ومن المعلوم أن الإسلام دينٌ نظّم كل شيء حتى العلاقة التي يجب أن تسود بين الإنسان وهذه العوالم الأخرى، مراعيا في نفس الوقت إحساسها وحقها.

الرحمة المهداة

إذا كانت رحمة الرسالة النبوية للعالمين على هذا النحو فأين يتاه بهذه الأمة وقد سلكت سبيل الفظاظة والغلظة والجفاء والقساوة والوحشية، وفطمت نفسها عن ينبوعِ رحمتِه الثرِّ، وتحجّرت قلوبها بفعل ركام الأهواء التي منعتها قطْر رحمته الشاملة، وندى قلبه الكبير، ولماذا لم نعُد نرحَم حتى أنفسنا، للأسف حتى رحمة الطيبين منا لا تتجاوز حدود جدران أهوائنا، ودوائرنا الضيقة، وأتباعنا القريبين، ألم يقل صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنما أنا رحمة مهداة**»، فلماذا يحاول فريق من أهل الإسلام خطِئَ منهج الخير، وتنكَّب سبيل السعادة أن يصوّر عن عمدٍ أن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن رحيما.

لما غابت هذه الرحمة عن المسلمين اليوم غاب عنهم جوهر الإسلام وحقيقة الرسالة المحمدية، وأتساءل أين ذُهِب بهم عن هدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين وصفه الله تعالى بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

[التوبة: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؟ فلِمَ تناحروا في ما بينهم؟ ولم اتخذ بعضهم بعضا عدوا، ونسوا الأعداء الحقيقيين، لماذا يبدون أشداء فيما بينهم، ورحماء بل أذلاء بل متحالفين مع أعداء الإنسانية وأعداء النبي الأكرم مظهر الرحمة الإلهية صلى الله عليه وآله وسلم؟!! لقد أضاعوا الرحمة يوم انتقض بهم الإسلام عروة عروة.

هؤلاء الأطفال الذين تقتلهم التفجيرات الانتحارية في المدارس والأسواق وينتظرهم الموت على متن الطريق وقارعتها، كان تفيض عيناه لموتهم، وقد سأله مرة سعد بن عبادة لما رأى عينيه تفيض دمعا على موت بعضهم: يا رسول الله ما هذا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم اللهُ من عباده الرحماء"(١).

---

(١) رواه البخاري، وغيره.

أحد غلمان التكفير والتفجير، وعباد الأهواء والتدمير، يسرع خطاه متوشحا حزاما ناسفا إلى سوق مزدحم بالأطفال والنساء والأبرياء والشيوخ والمسنِّين ليقتلهم، يحرص على قتلِ أكبرَ عددٍ منهم. وطيارٌ يقود طيارة تسابق الريح، فيختار أكثر الأمكنة ازدحاما واكتظاظا بالسكان فيقصفهم، ونسأل: أين اكتنز كلاهما كل هذا الحقد؟ ومن أين ادّخرا كل هذه الوحشية المظلمة؟ ألم يكن لهما في سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غُنية عن سنة هولاكو وطرائق الأمريكان والصهاينة؟ ألم يكن لهما في كتاب ربهما وسيرة هذا النبي الأكرم (ص) ما يرفعهما عن الوقوع في مستنقعات الدماء المحرمة؟

لقد جاءه صلى الله عليه وآله وسلم أعرابي فرآه يقبِّل صبيانا، فقال الأعرابي: أتقبّلون الصبيان، نحن لا نقبِّلهم؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((**وما لنا أن نزع الله الرحمة من قلبك**))، ولو درى الأعرابي أن قوما في عصرنا ينتسبون إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويدَّعون تمثيله الحصري يتلذّذون بقتل الأطفال، أو بقتل آبائهم أو أمهاتهم أمامهم، أويتلذّذون بذبحهم، أو بتفجيرهم، أو بقصفهم،

ولو درى أن هنا أعرابا قتلوا عشرات الآلاف من النساء والأطفال تأبطا لذريعة هي أوهن من بيت العنكبوت لأدرك أنه خلّف خِلفة ليسوا سوى ركام هائل من الوحشية والقذارة والفظاعة.

ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة ظافرا منتصرا على قومٍ آذَوه وسفّهوه ورجموه وطردوه وحاولوا قتله مرات، وحشدوا له الحشود، وجيّشوا الجيوش، فكان أعظمَ ظافرٍ منتصر، وخيرَ راحمٍ مقتدر، لقد أطلقهم من إسار المصير السيء الذي كانوا يستحقونه إلى سماحة الإسلام ورحمته وحلمه وصفحه، أثبت أن الإسلام فعلا صرْحُ الحياة الشامخ، ومجدُ الإنسانية الباذخ، هذا الرسول الإنسان، الذي وصفه ربه بأنه كاد يُهْلِك نفسه أسى وتحسُّرا على آثار تلك الأمة التي لم تهتد إلى أفياء رحمته، وظلال السعادة به، قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦]، ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣]، والبخع قتل النفس. النبي صلى الله عليه وآله وسلم كاد يهلك نفسه ويقتلها أسى على أولئك الكفار؛ لأنهم لم يسلموا،

لهذا نهاه الله عز وجل قائلا: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٨].

لكن أعداء اليمن اليوم ومرتزقة هذا العدوان ما إن يتمكَّن أحدُهم من خصمه ولو بالأسر حتى يوسِعَه قتلا وذبحا وتفجيرا وتفخيخا وتغريقا وصعقا وسحلا وصلبا بشكلٍ مخزٍ لا يطهِّر رجسَه وخزيَه ماءُ الدنيا، بينما جيش اليمنيين ولجانهم الشعبية لا تفتأ ترفع لواء المحامد، وتبني مجد المكارم، مذكِّرين ببقية من رحمة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا تزال ظاهرة في هذا القطر الميمون إلى يوم الدين.

يا للهَ لِعظيمِ الفرق بين منهج النبي البشير، وما تقترفه اليوم أمة التكفير والقصف والسحل والتفجير.

بالمؤمنين رؤوف رحيم

رأينا كيف يصنع هؤلاء التكفيريون بأبناء الإسلام، كيف يكونون أشداء عليهم، ورحماء على الكفار، بل وموالين لهم ومتحالفين معهم

ضد المسلمين، لكن كيف يصف القرآن الكريم معاملة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم للمؤمنين؟

لقد تجلّت صفة الرحمة – وهي مظهر من مظاهر رحمة الله – في نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، الموصوف بأنه ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وتقديم المعمول بيانيا هنا يفيد حصر رؤوفيتِه ورحيميتِه بالمؤمنين دون من سواهم، ولكن لا ينفي كونه رائفا أو راحما لسواهم، والمقصود بهذه الآية هو حصْرُ مدلولَي صيغتي المبالغة (رؤوف رحيم) عليهم، لا مجرد وقوع الرحمة والرأفة منه، فهذا عام لجميع العالمين؛ كيف لا وقد اتحد النبيُّ الرحمةُ بها، وكانت رسالته منحصرة فيها، بدليلِ وقوعِها منه لغيرِ المؤمنين، وكاد أن يقضي أسفا حين لم يؤمِنْ قومُه، قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ ، والبخع هو القتل، كما تقدم.

إن آية (بالمؤمنين رؤوف رحيم) تحصر كثرة وتنوع رأفته ورحيميته بالمؤمنين فقط، ولكنه أيضا رائف ورحيم بمن سواهم، أي

موقِعٌ للرأفة والرحمة لمن سوى المؤمنين، فيحب لهم الهداية والخير والخاتمة الحسنة.

هل الرحمة عاطفة منزوعة الضوابط؟

إن هذا الرسولَ الرحمةَ الذي خطئنا كمسلمين للأسف الشديد الطريقَ إليه؛ تمكّنت الرحمة من قلبه، بحيث لم تعرف القساوة طريقا إليه، ولكن مع ذلك فقد جاء الأمر الإلهي ليبين أن الرحمة ليست عاطفة منزوعة الضوابط دائما، فهناك من الحالات الاستثنائية ما تدعو إلى الخروج عن الرحمة الظاهرية ووجوب استخدام الخشونة الإيجابية.

ما عسى مريض بالسرطان مثلا أن ينتفع برحمةِ طبيبٍ أعفاه عن إجراء عملية جراحية رحمة به، بل الرحمة له تتحقق بأن يمسِك الطبيب مِشْرَطَه ليمزِّق الجسدَ المعتل من أجل استئصال مرضه، وكذلك ليس من الرحمة بالعالَمَ ولا بالمسلمين أن تُتْرَك أدواءُ مرضِ الظلمِ وعلة الاستبداد وظلام الكفر المستكبِر والمتعالي وتداعيات الفكر الشيطاني الفتنوي أن تستشري في المجتمع بحجة أن نبقى رحماء، هذه ليست رحمة، بل هي الضعف والخوَر.

إنها القساوة من حيث تسمح للمستكبرين أن يعيشوا في الأرض استكبارا وفسادا؛ ولهذا جاء الأمر من الله الرحمن الرحيم لنبيه الرسول الرحمة أن يستخدم الخشونة في وقتٍ ما أو حالة ما والتي تفهم ظاهريا على أنها مناقِضة للرحمة، ولكنها في الواقع ليست إلا جانبا من جوانب الرحمة الباطنة الذي قد يخفى على البعض حكمته وجدواه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾ [التوبة: ٧٣]، وحين أمره بقتال العرب المجاورين لجزيرة العرب والمتحالفين مع الرومان، فقال عزّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وهي نوعٌ من القوة في الموقف، هي ما يمكن تسميتها بحالة من الخشونة الإيجابية إن صحّ التعبير؛ لأنها نابعة من قلبٍ مُفْعَمٍ بالرحمة، بخلاف تلك الخشونة القادمة من قلبٍ مسجورٍ بالقسوة، التي ذكرها القرآن في معرض الكراهة ومقترنة بالشياطين، وقبول القلوب القاسية لتأثيرها، وهناك فرق بين أن تضرِب للتأديب أو تضرب للانتقام.

يعرض القرآن الكريم القسوة التي تبدو نقيضة للرحمة باعتبارها الخشونة السلبية التي يُنْظَر إليها باعتبارها شرا محضا لا خير معه، فحين تقسو القلوب تصبح وكرا للشياطين؛ ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣] ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج: ٥٣] ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢]، وهنا يبدو واضحا أن القلوب القاسية والناقمة لا يمكن أن تكون يد بناء، ولا فكرة خلاقة ومبدِعة، بل هي أقرب إلى الهدم والدمار. وهذا هو ما يؤكد واقع تلك الحركات التكفيرية التي لم تعرف معنى الرحمة النبوية المحمدية التي جاءت بالإسلام.

مواجهة الطغيان والبغي والعدوان .. رحمة

تعتبر مواجهة هذا العدوان الأمريكي السعودي نوعا من الحفاظ

على رحمة الرسالة المحمدية، وإعلاء لشأنها، ونصرة لها؛ لأن هؤلاء الجاهليين لو سيطروا على الناس وعلى المجتمع وعلى البلد لملأوا الأرض قتلا وذبحا وتفجيرا وتفخيخا، هؤلاء يرتكبون أشنع المحرمات وهم لم يسيطروا بعد، فكيف سيكون الحال لو سيطروا وتسلطوا على الناس؟ وهؤلاء كتبهم ومفتوهم يحللون لهم كل حرام، وهم لم يسيطروا بعد فكيف سيكون الشأن لو تحقق لهم مرادهم اللعين؟! إذن فإن مواجهة قوة الشر والقسوة والاستبداد لهي من السعي في بقاء الناس في ظلال الرحمة النبوية.

وما يُستَشْكَل حول هذه الرحمة العامة للعالمين بقتال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للكفار في بدر وغيرها، فأيُّ رحمةٍ حصلت لهم؟ وكذلك ما أُمِر به من الغلظة على الكافرين والمنافقين، وفي إقامة الحدود ومواجهة المعتدين؛ فالجواب عليه: أنه يجب النظر إلى الرحمة باعتبارها رحمة لجميع العالمين، وهذا الإشكال نشأ من النظر إليها باعتبارها منفرِدةً في شخصِ الكافر المحارِب والمقتول، أو الفاسق المفسِد المقام عليه الحد، أو شخص المعتدي الذي طغى وتجبر واعتدى.

لقد وضع الإسلام ضوابطَ كثيرة قبل الوصول إلى حالة تطبيق الحد، فليس مقتضى الرحمة للجميع أن يُتْرَكَ بعضٌ منهم ليفعل ما يحلو له من إيذاء المؤمنين وقتلهم والتسلط على المستضعفين، والسكوت عن مظالم الظالمين، وإن بلغ أثرا كثيرا في اختلال نظام الدنيا والدين، وعليه فإن من مقتضيات الرحمة العامة للجميع أن تُحْسَم المادَّة التي يأتي منها نقيضُ الرحمة بتكدير صفوِ المجتمع، وإفسادِ أمره، فلا يجوز أن يُرحَم مثلا القاتل المصرُّ على ارتكاب المزيد من القتل؛ لأن هذه الرحمةَ السلبية التي تشفق على فرد سيء ستؤدِّي إلى نزعِ الرحمةِ الإيجابية عن حياةِ مجتمع بأكملِه، وتأييد حصول القسوة والظلم عليهم، ولو تُرِك هو وأمثالُه وشأنَهم لحضرت الجريمة والنقمة في حياة الناس جميعا، وتضاءلت الرحمة، وكذلك العقوبات فإن عقوبة واحدة لمجرمٍ واحد ستؤدي إلى توفير الرحمة لعشراتٍ بل ولمئاتٍ كانوا سيُحْرَمونها، والمعلوم تاريخيا أن العهود التي يُطَبَّق فيها القانون الجزائي تقِلُّ فيها الجرائم، فعقوبة واحدة تؤدي إلى سلامة المجتمع من عشرات الجرائم، وهذا هو مغزى الحدود والقصاص في الإسلام؛ والمجتمعات التي لا تطبّق فيها العقوبات تكثر فيها الجرائم، وتغيب

الرحمة، ويتسلسل الإجرام، ولو طُبِّق فيها الحد ولو لمرة واحدة لأمسك كثيرٌ من المجرمين عن فعلاتهم المنكرة، وبهذا تكون الرحمة قد تحقّقت في أكمل وجه وبأقل الخسائر.

على الرسول الرحمة أن يصف الدواء دواء الإيمان والهدى والرشاد، وعليه أن يحاول إقناع المرضى بالتداوي به، وحين لا يستجيب أحدهم لهذا فإن ذلك لا يُخْرِجُ الدواءَ عن دوائيته، وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم الهادي إلى الله والداعي إليه، وهو رحمة للمؤمن وللكافر أيضا من حيث أنه يعرّضهم جميعا إلى الإيمان والثواب الدائم والهدى، وهو خيرٌ محضٌ ورحمة خالصة، كما أن تكاليفه صلى الله عليه وآله وسلم كانت أسهلَ من تكاليف الأنبياء السابقين، وكانت شريعته سببا لإسعاد البشرية جمعاء، وموجِبا لصلاح معاشهم ومعادهم، وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم راحما حتى لأعدائه، يحِبُّ لهم الهدى والنجاةَ من النار، وبذل لهم الكثير من الأمان، وقبل الجزية من أهل الكتاب وكفل لهم حرية الدين، وسأل الله تعالى أن يدفع عن أمته عذاب الاستئصال، وما كان الله معذب قومه وهو فيهم.

البشرية .. والرحمة المحمدية

لقد سعدت البشرية يوم حكمت الرحمة هذا العالم، ووصل تأثير الرسالة الرحمة أصقاعه، وكان الخير يحل فيه بالقدر الذي يأخذ من هذه الشريعة الرحمة، فحين يكون الأخذ عاليا من منسوب الرسالة تكون نسبة الخير والسعادة والرحمة عالية في المجتمع، وحين يبتعد الناس عن الرسالة المحمدية يكون بالقدر نفسه البعد عن الرحمة باتجاه القسوة والنقمة.

لقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم بما فيه صلاح أمر الدنيا والدين، وما فيه صلاح الأولى والأخرى، وما فيه التوازن الإيجابي بين الروح والجسد، والغاية والوسيلة، وجعل العلاقة بين عناصر هذا الوجود هي علاقة (الرحمة)، وجاء العالم بأعظمِ أمر كانوا يفتقدونه فتاهوا في جاهليتهم، إنها الرحمة، ولما حلّت الرحمةُ أنحاءَهم سعدت حياتهم، ورفرف لواء الخير في ربوعهم، ورغم ما مني به الإسلام من انتكاسات بعد رحيل الرسول الرحمة، إلا أن معالم الرحمة ظلَّت محمولة على أكتاف الصالحين من أهل البيت والصحابة

والتابعين، أهل البيت عليهم السلام الذين خلّفهم الرسول الرحمة علَما للخير والحقّ وراءه بنص حديث الثقلين، وكانوا أكثر القادة رحمة بهذه الأمة؛ فكثيرا ما ثاروا وقدّموا أنفسهم فداء وقربانا للرحمة بأمة جدهم صلى الله عليه وآله وسلم، لقد شاركت الرحمة مع عناصر أخرى في تمييز الحضارة الإسلامية عما سواها من الحضارات الأخرى، هذه الحضارة لم تكن نتيجة لوجود حكام أو لعدمهم بقدر ما كانت نتيجة عوامل التحضر الإسلامي الكامنة في المجتمع المسلم، والتي ظلّت تتفاعل مع بعضها لإنتاج الحضارة حتى في ظل وجود حكام لا يلتزمون بمنهج الإسلام.

عالمنا والرحمة

تسود عالَمنا اليوم الماديةُ بشكلٍ فظيع، وتستأثر به القسوة بنحوٍ مرْعِب، وتظل القيم الإنسانية التي تنادي بها المنظمات الإنسانية غير كافية، وأكثرها غير بريء، وتتحكم فيها الازدواجية، وحقوق الإنسان ينظر إليها الغربيون المدعون للتحضر من زاوية عنصرية، فحقوق الإنسان من غير أناسهم تأتي لديهم في آخر سِلَّم الاهتمامات،

ويسبقها بمسافات طويلة المصالحُ القومية لهم ولشعوبهم.

الواقع يثبت أن أكثر مصادر القسوة هي هذه الحضارة المادية المعاصرة التي تشهدها أنظمة الاستكبار، والتي تفتقد عنصر الرحمة، وتعصف بها رياح القسوة، فكم شُنّت الحروب من قبلهم ضد بعضهم لأهداف مصلحية خاصة، أو أهدافٍ اتَّضح أنها مكذوبة واتُّخِذت ذريعة لتدمير الشعوب، وغزو العراق نموذج صارخ على ذلك، وهذا العدوان الملعون على اليمن أحدث نموذج على ذلك أيضا، طائراتهم تقتل الناس تحت كل حجر ومدر، وتملأ الدنيا خرابا ودمارا.

شركات التصنيع الحربي تصنع الرؤساء للضغط على الشعوب الأخرى لاتخاذها أسواقا لإنتاجهم، كما أنها تفتعل الحروب وتصنع الأعداء الوهميين للعب على عقول المستضعفين الذين هانوا على أنفسهم لكي ينشغلوا ببعضهم وبشراء الأسلحة اللازمة، لعلكم لاحظتم كيف يجيّشون هؤلاء التكفيريين ضد المجتمعات الإسلامية، ويوظفون بغضهم وحماقتهم وبعض مروياتهم العنفية التكفيرية لخدمة أغراضهم السياسية والمصلحية ولو تسببوا وارتكبوا في قتل مئات الآلاف وتشرد الملايين، إنها القسوة إذن في أبشع صورها،

وغياب الرحمة التي تفتقد أجلى مظاهرها في نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم وفي دينه القويم.

الرابط الجامع والوسيلة النافعة

إن الرحمة إذن يجب أن تكون الرابطة الجامعة بين المؤمنين، وأن تكون الوسيلة النافعة للمؤمنين وهم يدعون غيرهم إلى دينهم، كما أنه من البيّن وجوب أن يكون حكام المسلمين على درجةٍ كبيرةٍ من هذه الرحمة، التي كان عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأجزِم أنه لو حضرتهم تلك الرحمة لما نكّلوا بشعوبهم، ولما استأثروا بأموالهم، ولما عبثوا بمقدراتهم، وبحاضرهم ومستقبلهم، لكنهم لما كانوا متصفين بالجفاء والاستبداد والظلم صاروا أقربَ إلى النار التي هي مباءةُ القساة والجفاة، منهم إلى الجنة التي هي رحمة الله التي وعد عباده المؤمنين أن يدخِلَهم فيها.

إن الرحمة جوهر الرسالة المحمدية، وبها تتحقّق سعادة العالمين لو عقلوا معناها، وبها تتحقق وحدة المسلمين لو أدركوا فحواها، وبها يرفرف لواء الإسلام خفاقا على ربوع العالم لو كانت الرحمة مطيتهم

التي تهديهم إلى التعامل السليم، ثم أليست الرحمة هي الرابطة الإسلامية الإنسانية التي عناها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم قال: ((**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**)).

***

المحتويات

العالم غداة مولد الرحمة ٣
الرحمة في القرآن ٦
الرحمة وواقع التكفير ٨
دور الوهابية ١١
العدوان على اليمن والتكفير ١٣
ضلال كبير ١٥
التكفير التاريخي الذي يتكرر اليوم ١٧
التكفير في القرون الثلاثة الأولى ١٩
لا يكفّرون فقط بل ويحضون على العنف والقتل ٢٤
التكفير في القرون الوسطى ٢٧
التكفير في العصر الحاضر ٣٠
غياب الرحمة .. سبب الشقاء ٣٣
الجاهلية الأخرى ٣٤
بحث بياني في قوله تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} ٣٧
من هم (العالمين)؟!! ٤٠
الرحمة المهداة ٤٣
بالمؤمنين رؤوف رحيم ٤٧
هل الرحمة عاطفة منزوعة الضوابط؟ ٤٩
مواجهة الطغيان والبغي والعدوان .. رحمة ٥١
البشرية .. والرحمة المحمدية ٥٥
عالمنا والرحمة ٥٦
الرابط الجامع والوسيلة النافعة ٥٨